

# رواية

سعد محمد رحيم

مقولة "موت المؤلف" التي جاء بها النيبويون لا تصح هنا. نحن نتحدث عن تلازم عضوي، بين مجموعة نصوص أدبية وسيرة حياة، يقضي إلى إنشاء مروية تلخص أو تعكس أو تروي شطراً من تاريخ حياة أعلامنا.. هذه المروية أقول التاريخ العربي المعاصر، واقصد على وجه التحديد، نصوص/ روايات ومجموعات قصصية/ نجيب محفوظ الخمسين، وحياته التي اكتملت دونها بالمعنى الحجازي وإسقاطاتها.. هذه المروية جسّماته جامع الحسين في القاهرة من مولده في العام ١٩١١ ببيت القاضي في الجمالية بالقاهرة ضمن الفضاء المكاني الذي يستمد خصائصه وسحره من وجود ذلك الجامع "الحسين" وحي تنطوي عليه هذه الكلمة من ثقل روحي وتاريخي، وعلى خلفية اجتماعية وسياسية موارء بتناقضاتها وصراعاتها وتحولاتها وإسقاطاتها.. هذه المروية الجزئية صارت في صلب المروية الأكبر عن بزوغ فكر الرواية العربية، ومباشرة الأدب العربي مغامرة الحدأة، وتدشين عصر الرواية بشكلها الفني الحديث، عربي، وهي مروية جزئية لا غنى عنها منحت المروية الأكبر، لا عنصر قوة وحسب، وإنما نكهة سرديّة خالصة. تأخذ المروية هذه ثلاثة سياقات متعاوضة ومتداخلة بالعلاقة مع حياة نجيب محفوظ الشخصية منذ لحظة الولادة وحتى الممات. السياق الأول يتمثل بتغيرات حياة عصرها السياسية في القرن العشرين (مرحلة الاحتلال الإنجليزي، والكفاح من أجل الاستقلال، الحكم الملكي، ثورة ١٩١٩، ثورة يوليو ١٩٥٢، هزيمة ١٩٤٧، موت عبد الناصر، المرحلة الساداتية، حرب

١٩٧٣، الانفتاح الاقتصادي وتصنيفه القطاع العام، زيارة السادات لإسرائيل، مقتل السادات، صعود وانتعاش الأصولية الإسلامية، وطبيعة الحال بالتساق والتزامن مع مجمل التغيرات السياسية على الصعيد العالمي). السياق الثاني هو التحولات الاجتماعية والحضريّة في إطار الصراعات السياسية والفكرية والطبقية داخل مدينة القاهرة تحديداً بعدما مركز ويؤرّء المشهد السياسي والاجتماعي والتقاليّ لا لصر وحسب، وإنما وإلى حد بعيد للنهضة العربية التي بدأت مصرياً واستمرت في أغلب الأحيان بقيادة فكرية مصرية منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى هزيمة ١٩٦٧ في الأقل. السياق الثالث والطبقية داخل مدينة القاهرة تحديداً هو تطور جنس الرواية العربية، بعد أن حصل شبه إجماع بين النقاد والمختصين على فضل نجيب محفوظ في إغناء فن السرد الروائي ليتيح تاريخاً للرواية العربية يؤشر بما قبل وما بعد نجيب محفوظ.

ولد نجيب كما قلنا في الجمالية وسرعان ما انتقلت مسانئته إلى الجمالية، فيفي طوال الوقت مرتبطاً روحاً وجسداً وعقلاً بأحياء القاهرة القديمة المحيطة بالحسين، هذا المكان سيكون بطلا دائما في معظم أعماله، لا سيما تلك التي اكدت عبريته الأدبية في طور تفتح موهبته الأول، والذي يمكن تسميته مجازاً بالمرحلة

والروائي. وهذا كله لا يشكل مؤاخذات عليه وعلى سيرته، وكان من حسن حظنا، نحن قراءه، أنه لم يواجه منفضات حياتية كبيرة ربما كانت ستحرماننا من بعض أروع وأفضل ما أنتجته العرب من نثر سردي في تاريخها.

في السياسة كان هوأه وفديا وإن لم ينتم لهذا الحزب، وهو في حقيقة ميله القصر العشرين، النخب السياسية والثقافية المصرية. وكان محفوظ قد وضع مخططا لكتابة عشرات الروايات من هذا القبيل، روايات تاريخية جعل من التاريخ الفرعوني مادتها الرئيسة، لكنه نه لحظة تألق ذهني، لا طنه اكتشف منطقة موهبته الأصلية، وما يتطلبه منه العصر الذي يعيشه، وهو عصر انتقال نوعي، ومنعطف تاريخي تقاعد معه الأمة القرون الوسطى وتدخل العصر الحديث، وتكون على عتبة اقراء ذكية للتناقضات والفساد في الحياة السياسية والاجتماعية المصرية، فكانت الرواية أقرب ما تكون للتنبؤ بالهزيمة.

تتحدر أسرة محفوظ من البرجوازية المدنية، من الطبقة الوسطى الدنيا، كما أشرونا، وقد ولد ومصر تزح تحت الهيمنة الكولونيالية الإنجليزية، وكان في الثامنة حين اندلعت ثورة ١٩١٩ ومع فتحة وعيه كان الشعب المصري يخوض نضالا متمميتا بقيادة حزب الوفد ورئيسه سعد زغلول، وفي هذا المناخ كانت الشريحة المستتيرة من الفكرين المصريين تحرك ما هو ساكن وراءه في ثقافة المجتمع وتحرش بما بقي ما يعتقد بأنه الصحيح بإطلاق وفي حكم المشير عبد الحكيم عامر روايته "ثورة فوق النيل" فاستشأط غضبا وأرسل إليه في الجيش، ولم يسافر بعيدا عن وطنه ليندق طعم البعد والمنفى . البلدان الوحيدان اللذان زارهما هما يوغسلافيا واليمن في الستينيات. كما أنه لم يسجن، (مرة واحدة كما يقول صديقه جمال الغيطاني كاد يعقل حين قرأ المشير عبد الحكيم عامر روايته "ثورة فوق النيل" فاستشأط غضبا وأرسل إليه في الجيش، ولم يسافر بعيدا عن وطنه الناصر بهذا مع تحذيره بخطورة أن يعقل رجل مثل محفوظ فامر بإلغاء التفتيش فمادت السيارا الناهية إلى المكان الذي يوجد فيه من منتصف الطريق) كما أنه لم يبعد عن عمله (يذكر الغيطاني في مقابلة تلفزيونية أن تداعيات القائمة التي أعدها السادات لإبعاد المثقفين المصريين في السبعينات عن المؤسسات الثقافية كانت تحوي اسمي محفوظ وتوفيق الحكيم إلا أن وزير إعلامه أبو الهجد نصحه بأن يستثنى هذين الاسمين لقوة شعورهما التقائفي عريبا وعالميا (فعل) بيد أنه في مطلع ١٩٧٣ وقع بيانا مع كتاب كبار آخرين يحث السادات على الحرب لتحرير سيناء فمنع من النشر في الأهرام والتحدث إلى الإذاعة والتلفزيون وبقي هذا القرار ساري المفعول حتى ألقى في أيلول من السنة نفسها، أي قبل شهر واحد من حرب تشرين، وعلى الرغم من أن محفوظ لم يكن رجلا غنيا قبل توليه فانه لم يعرف الحياة والفن والجوع والتشرد فقد كانت عائلته ضمن الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى، كما أنه بقي موظفا حكوميا يتقاضى مرتبا ثابتا (تنقل بين وزارتات المعارف والأوقاف والثقافة وارتقى في المراتب الوظيفية وحصل على درجة وكيل وزير أقدم قبل أن يحال على المعاش في (١٩٧١) وعرفت كتبه ورواجا مبكرا فحيات له مصدرا للدخل وإن لم يكن كبيرا، وحقا أثارت كتبه، أو بعضها، ردمو أفعال ما فيها من جرة إلى أفكار وموضوع يمكن أن تنسقر على أكثر من وجه، وتحرش بتابوات اجتماعية ودينية وسياسية، لكنه لم يخض معارك فكرية ساخنة على صفحات الصحف والمجلات كما كان يجري في العقود الأولى من القرن الماضي بين مفكري وأبداع ذلك الزمان، وأحسب أنه حسنا فعل ليتصرّف إلى ما هو اجدي، واقصد منه القصصي

# وانه



نجيب محفوظ

أو هزيمة فكرها، مع عدم إغفال تزقها النفسي وفلقها الجودي وأحلامها وفرض تجاؤها مننطق الهزيمة، والنهوض ثانية.. فمحفوظ هو مؤرخ هذه الطبقة للقرن العشرين، هو المؤرخ الفنان الذي لا تهمة الواقعة بقدر ما يؤرّقه ما وراءها، ما سكت عنه المؤرخون التقليديون، ما جرى في الهامش، ما عاشه المهملسون وما انعكس على حياتهم، (حميدة، وحسن وحسين وحسين والمعلم كرشة وزيندة ويساين وهفمي وأمينة ونسي أحمد وكمال وسعيد مهران وعامر وجدي ومنصور باهي وزهرة وعاشور الناجي والأولاد وأحفاده، الخ الخ) عشرات ومئات الأسماء التي ابتكرها محفوظ وأوقعها في ذلك اليوم الجميل بان هؤلاء كلهم ليسوا سوى أناس حقيقيين من لحم

ودم ولدوا وعاشوا وتزوجوا وخلفوا الأولاد وحققوا نجاحات وارتكبتا حماقات وأخطاوا وأصابوا وماتوا.. تاريخ يكاد يكون أكثر إقناعا ومصدا مما كتبه من أرخوا حياة مصر في القرن العشرين. ولا أحسب أن عاشقا لكتابات محفوظ، حين يفكر بالقاهرة يستطيع التخلص من الصور السردية الحية التي رسمها محفوظ لهذه المدينة. فالسرد هنا بديل لموضوعي عن التاريخ، وبعبارة أخرى : إن التخيل يخترق الواقع ويتلبسه ويقدمه ممسما بصدق بكتافته وظلاله وإبعاده الاجتماعية والسياسية والنفسية، وتحولاته على السطح وفي العمق. ولست التصور مؤرخا وهو يتكب على دراسة التاريخ المعاصر لمصر، والقاهرة على وجه التحديد، ولكنه تجاهل ما رسمه نجيب محفوظ.

عن هذا المكان في رواياته، فمثل هذا التاريخ يسبق ناقصا يفتقر إلى الروح التي استطاع محفوظ صرض لتواجها وتلقاها وتطلعاتها. تقصص محفوظ عن نماجه والتقطها من واقع مدينة القاهرة، من حاراتها ومقاهيها وشوارعها وأسطواها وتكاياها ومساجدها ومؤسساتها الحكومية، ولم يتعامل معها بسطحية وميلودرامية مطمئة مثلما يفعل أشباه المؤلفين بل أحالها إلى رموز كوثية، ودائما كانت نصوص محفوظ إطرارا يخفي رؤية متسلطسة إلى الذات والعالم والكون والزمان والمصير، وفي كل نص كان يضعنا أمام جملة من المعضلات والأسئلة الحيرة والصادمة. ولتسنا

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

بخلاء الجاحظ العراقيون

# وظ

# وظ

الحسين قبل دفنه، وهو الذي يعرف أن لا أحد يجرؤ على نقض أو إغفال هذه الوصية. وفي هذا الدخول مفتع رمزي يمثل الذروة الدرامية لحياة ثرية مبدعة، معنى هو أولا تأكيد على الانتماء الصميم للمكان (قلب القاهرة العزيزة) ناهيك عما يلتم عليه من وعشة مصوفية ونسج روحي ورؤية وجودية تشيعت بها كتاباته واستمدت منها حيويتها وقوتها. وهكذا بعد أن أثرى الحياة الثقافية العربية قصا ورواية وشيع منها كما قال قبل رحيله بمدة وجيزة فإنه اختتم رحلته الأدبية بكتابة سردية أخيرة لخص فيها أحلامه وعنتها بـ (أحلام فترة النقاهة) وهذا يتدرجا بمحاولة العالم النضوي الشهير كارل يونغ وهو يروي سيرته من خلال أحلامه في كتابه (ذكريات، أحلام، وتأملات) بتحرير (إيليا بافه)، مع الفرق في المقصد والأسلوب.

أحسب أن كتّاب الرواية العرب، بعد رحيل نجيب محفوظ ينتابهم نوع من الشعور باليتم، إنه الشعور بفقدان الأب، بكل ما يخلفه هذا الفقدان من أسى وضياغ، وفرغ يولد الخوف، أو عبارة أخرى أن الروائي العربي وجد نفسه إزاء حرية فسحة أخطتها مفتع أفاقها محفوظ تحمل الروائي هذا مسؤولية أكبر في إثراء فن الرواية الذي رأى فيه محفوظ منذ الأربعينيات تمهلا لتعميرة الدنيا الجديدة وهو ينجاز له في مقابل الشعر الذي بقي العقاد بدافع عنه بعده، على وفق وجهة نظره، أعلى مقاماً ورتبة، حيث دخل الأفتنان في معركة خلافية على صفحات الصحف، آنذاك، حول هذه المسألة.

هناك من أطلق على نجيب محفوظ تسمية الهرم الثالث عشر، وهناك من نعتته بضمير مصر، وهناك من يقول، من غير أن يجازب الصواب إلا قليلا، إن الروائيين العرب خرجوا جميعا من تحت معطفه، كما خرج الآرثيون الروس من تحت معطف غوغول، لكن جنازة على الرغم من أنها كانت مهيبه، حيث لاف جثمانه بالعلم الوطني وحمل على عربة مدفع تجرها الخيول، ومضى خلفه كبار القوم يتقدمهم السيد رئيس جمهورية مصر، مع اهتمام إعلامي، لا سيما المصري، لا بأس به، أقول؛ على الرغم من هذا فإن عدد من رافقوا الجنازة لا يتعدى بضعة مئات من الأشخاص (عدد أعضاء اتحاد كتّاب مصر بضعة الآف) على عكس ما كنا نشاهده في جنازات الفنانين والمغنين التي يصل عدد المشاركين إلى بضعت مئات الآلاف، ومثل هذا المنزلة لها دلالتها الاجتماعية والثقافية تشير بوضوح إلى مدى تراجع الثقافة الرصينة ومكانة فرسانها في مجتمعاتنا لعنصر الثقافة الاستهلاكية، وهذا لا يعني قطعاً الانتقاص من دور الفن (الحقيقي وليس الirth) بأشكاله كافة في بناء المجتمع.

كم من الجيل الحالي يعرفون نجيب محفوظ؟ كم منهم قرأ واحدا أو أكثر من أعماله، حتى بعد حصوله على نوبل؟ اعتقد أن نسبة بائسة بالقياس إلى الجيل السابق وطبيعة اهتماماته. وقد تحدثت الأخبار عن زيادة كبيرة في عدد الجنازة المطبوعة لأعماله بعد تلك الحادثة، لكنني لا أتظن أن تلك النسخ صارت من ضمن مقتنيات الشباب من الجيل الجديد، أو حظيت بالثوم تحت مخدات الشابات.

هل لأن العالم تغير حتى بات لا يعنيه إبداع شخص مثل نجيب محفوظ مهما كان قيمة المثنية والفكرية، أم لأن نجيب محفوظ، كما يقول شاكر النابلسي في مقال رثاء لـمحفوظ، عاش ومات في الجاهلية العربية؟!

## بخلاء الجاحظ العراقيون

## بخلاء الجاحظ العراقيون

بعلمانيينه ومتدينينه، كما هو العراق الحقيقي الذي عرفناه، وليس العراق المحصص الذي ننكره وينكرنا. لقد تجاور فيه الجواهري وغاذب طعمه فرمان وجواد سليم وبلند الحيدري وقتيبة الشيخ نوري وعلى جواد الطاهر ومهدي الخزمي إلى جانب ساسون سومبخ وشمعون بلاص وسامي النقاش وسامي زبيدة وسامي ميخائيل، وعبدالله كوران وشيروكو بيكس، بالإضافة إلى عشرات الحضائر من التراث العراقي، والتقاليد العربية للثقافة العراقية، والمعارض الفنية، في ذلك الوقت الذي كان فيه مركز صدام النشائي في العاصمة البريطانية يدق الآلاف على بعض المثقفين العرب والعراقيين لتمجيد قادسيته و ثقاسفة القتل والحرب والعنصرية.

ديوان الكوفة مهدد بالقلق، إذا لم يكن قد أغلق الآن، فصاحبه قد تعب بعد تسعين عاما من الرسم والعمارة والحلم بعراق جسده في اللوحة والبناء وفي الديوان، لكنه لم يره، بعد، ولم تتعد، بعد، يد عراقية لتتخذ ما يمكن إنقاده في الأقل.

نعرف أنه نداء يانس، يعيدنا، مرة أخرى، إلى العلوي وتوقعاته واستنتاجاته التي لا نريد أن نصدقه، ومع ذلك نندعو من الله لو أن أهدأ يدحضها ولو مرة واحدة.